القديس
يوحنا الذهبي الفم

٣ مجمع السنديان ونفيه (٤٠٣- ٤٠٧)

أخطأ البطريرك السكندري في قبوله الدعوة لعقد مجمع لمحاكمة القديس يوحنا، فجمع حوله الطاقات المضادة للأخير. انعقد في قرية السنديان أو البلوط، ودُعي المجمع باسمها. استدعى يوحنا أربع مرات للمحاكمة ولم يحضر، محتجًا بما جاء في رسالة ثاوفيلس نفسه أنه حسب قوانين نيقية لا يجوز لأسقف أن يتدخل في أمور خارج إيبارشيته.

جلسات المجمع

قرأ الشماس يوحنا، الذي أقاله البطريرك لاتهامه في جريمة قتل أو شروع في قتل، الاتهام، وكان يتلخص في ٢٩ اتهامًا. كما اتهمه الراهب إسحق أنه تحدث بألفاظ نابية ضد الإمبراطورة. كما تقدم بعض الأساقفة المعزولين يشتكونه. ووجهت اتهامات ضد بالاديوس وغيره بكونهم أوريجانيين. لم ينشغل المجمع بمشكلة "الأوريجانية" ولا بالإخوة الطوال.

انتهت مشكلة "الإخوة الطوال" بالصلح وعاد الرهبان مع البابا ثاوفيلس، بعد أن لطخ البابا تاريخه بهذا المجمع، إذ صار أداة لتحقيق رغبات الإمبراطورة الشريرة.

قرارات المجمع

ذكر المؤرخ بالاديوس النص الذي وجهه المجمع إلى إكليروس القسطنطينية والبلاط الإمبراطوري: [إذ اتهم يوحنا بجرائم كثيرة، وقد رفض الحضور، فإن القوانين تأمر بحرمانه، هذا ما فعلناه. لكنه أيضًا أساء إلى جلالة الإمبراطور، لذا نطلب عزله عن كرسيه، ولو تم الأمر قسرًا. أما بخصوص إساءته للآمبراطور فإن عقوبته عنها ليس من شأننا.]

عرف البطريرك قرار المجمع، وفي هدوء قال إن **الذي لم يغتصب الأسقفية يستطيع أن يعيش حرًا، لا يخاف الاستبعاد.**

مع اعترافه بعدم قانونية المجمع، مطالبًا بعمل مجمع مسكوني يعيد النظر في القضية، وجد نفسه ملتزمًا أن يخرج إلى المنفى. فقد التفَّ الشعب حوله، فخرج إليهم يتحدث معهم كلمة وداع مملوءة إيمانًا، مطالبًا إياهم أن يعودوا إليه في اليوم التالي ليصلي معهم.

وقف وسط شعبه يقول: [هوذا الأمواج تشتد، والعاصفة تزداد عنفًا، لكنني لا أخاف الغرق، فإني أقف على صخرة! إن هاج البحر لا يستطيع أن يطويها! لترتفع الأمواج فإنها لا تقدر أن تبتلع سفينة يسوع![1]] أخيرًا أسلم الراعي نفسه في يديّ الجند من وراء شعبه وخرج مودعًا مذبحه وشعبه.

ألهب سفريان غضب الشعب وزاد من ثورته، حتى خشي الإمبراطور من حدوث مذابح في القسطنطينية، فأمر بعودته، خاصة وأن زلزلة حدثت في تلك الليلة أرعبت الإمبراطورة، اعتبرتها كقول بالاديوس[2] علامة غضب الله بسبب ظلمها للراعي الأمين.

البابا ثاوفيلس يغادر القسطنطينية:

لم يكن للبابا ثاوفيلس أن يبقى في القسطنطينية، فغادرها إلى الإسكندرية، حاملاً معه خطأه في حق البطريرك يوحنا الذهبي الفم التي لم يغفرها له المؤرخون. مع أنه قد أعلن في أواخر حياته ندمه على ما فرط منه بخصوص الذهبي الفم.

أما عن موقفه بالنسبة لكتابات أوريجينوس، فقد عاد الآباء الرهبان إلى أديرتهم يتعبدون لله لا يشغلون أنفسهم بمناقشات أو مجادلات، أما هو فقد جاءت الرسالة الفصحية لعام ٤٠٤م تحمل أيضًا هجومًا ضد "الأوريجانية" وإن كان المؤرخ سقراط يقول[3] إنه وُجد يقرأ في كتب أوريجينوس فسُئل: لماذا تقرأ في أوريجينوس؟ أجاب: [**كتب أوريجينوس تشبه مُروجًا تتزين بزهور من كل نوع. إن وجدتُ فيها زهرة جميلة قطفتها، وأما ما تبدو لي مملوءة أشواكًا فإني أعبر عليها كي لا أُضرّ بها!**]

نفيه

في خريف سنة ٤٠٣م أقام أركاديوس لزوجته تمثالاً من الفضة،[4] في أكبر ساحات المدينة بجوار كنيسة أمنا صوفيا، وفي حفل تنصيب التمثال اجتمع الشعب في الساحة التي تحولت إلى حفلاتٍ راقصةٍ ماجنةٍ. أخذ الذهبي الفم ينهي عن هذه الأعمال ويحرمها.

فكرت الإمبراطورة في عقد مجمع آخر فيه تستبعد الذهبي الفم من أمام وجهها. أما هو فوقف يوم عيد يوحنا المعمدان يقول[5]: ["هوذا هيروديا تثور من جديد، لأنها تعود فترقص، إنها تطلب رأس يوحنا من جديد في طبق!]

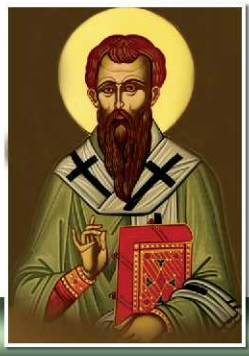

في أواخر عام ٤٠٣م. التأم مجمع بالقسطنطينية من حوالي مائة أسقف، ولم يجد الأساقفة ما يشتكون به على البطريرك، فأعلنوا أن قرارات مجمع السنديان قائمة، يجب تنفيذها. تحولت القسطنطينية إلى كتلة من الجحيم، الإمبراطورة مع الأساقفة في حالة غليان، يودون الخلاص من يوحنا لكنهم عاجزون. وسط هذا الجو المتأزم جاء عيد الميلاد، وعلى خلاف العادة لم يحضر الإمبراطور احتفالات الكنيسة، معتبرًا يوحنا معزولاً عن كرسيه!

جاء سبت النور لعام ٤٠٤م، فطرد الذهبي الفم من الكنيسة، وحظر عليه الخروج من قلايته[٦]، كما طرد رجال الإكليروس الذين يميلون إليه من الكنائس.

التجأ الكهنة مع الشعب إلى الحمام الكبير الذي شيده قسطنطين الكبير، وحولوه إلى كنيسة يقضون فيه خدمة العيد، لكن سرعان ما دخل الجند وهجموا على الشعب، وتحول الحمام إلى عويل وبكاء وضرب الكهنة والشمامسة، وطردوا بثياب الخدمة، وتلطخت المعمودية بالدماء[٧]. خرج المؤمنون خارج أسور المدينة يقيمون الذبيحة في ميدان قسطنطين، ومنذ ذلك الحين صار الشعب يعقد اجتماعات – متى كان الوقت مناسبًا – تارة في موضع، وأخرى في موضع آخر... وصار أضداد البطريرك يسمونهم باليوحناويين[٨].

في الخميس بعد العنصرة دخل أكاسيوس وأعوانه إلى الإمبراطور يتعجلون تنفيذ قرار النفي من أجل سلام الكنيسة والشعب، معلنين مسئوليتهم الخاصة في هذا الأمر. أرسل الإمبراطور أحد كبار رجاله إلى الأب البطريرك يسأله ترك الكنيسة من أجل السلام العام[٩]، فخضع للظلم الجائر.

قبّل البطريرك الأساقفة ثم دخل المعمودية حيث استدعى الشماسة أولمبياس وزميلاتها حيث قال لهن: "لقد انتهي طريقي، فقد لا أرى وجوهكن مرة أخرى. رجائي إليكن أن لا تترك واحدة منكن خدمتها في الكنيسة. فإنه أيا كان الأسقف الذي يرسم بعدي اخضعن له... اذكروني في صلواتكن".

احتراق الكاتدرائية

صدرت الأوامر بإغلاق أبواب الكنيسة على من بداخلها. فاتجه الشعب نحو الباب المغلق وضغطوا عليه بعنف فانكسر، واندفعوا تجاه الساحة ليجدوا جماعات من الأعداء يقذفونهم بالحجارة ويدفعونهم دفعًا للعودة تجاه الكنيسة. وفي لحظات ارتفع لهيب النيران في الكنيسة من كل جهة، ثم لحق بسقفها. وفي وقت قصير دفعته الرياح تجاه مبنى مجلس الشيوخ ليأتي عليه تمامًا. وقد بقيت النيران مشتعلة طوال الليل، منذ العشية حتى الصباح.

ذاق أتباع يوحنا الأمرين، وكما روى سوزومين أن بعضهم امتنع عن الظهور في الأماكن العامة والأسواق، بينما اضطر البعض إلى الهروب من المدينة.

في نيقيت

خرج القديس إلى الميناء إلى نيقيّة، حيث بقى في السجن حوالي أربعين يومًا أو أكثر يذوق فيها المرارة، أما هو فظلت نفسه تتقد غيرة نحو خلاص الناس في سوريا وفينيقية. لم يستطع السجن ولا المستقبل المجهول أن يلهيانه عن رسالته.

تستطيع أن تلمس روح القديس مما جاء في رسالته إلى الكاهن قسطنديوس:

[إني أكتب إليك الآن لكي أحثك على إتمام ما نصحتك به، فإن رأيت بحر هذا الاضطهاد قد هاج، وتعالت أمواجه إلى السحاب، فلا تهمل شيئًا واحدًا مما أنت ملتزم به.

اهدم نفاق الوثنيين. شيد الكنائس، واهتم بخلاص النفوس.

إن رئيس المركب لا يترك الدفة بسبب صدام الأمواج، ولا يهمل الطبيب المريض من أجل خطر مرضه. إذن لا نضطرب من الشرور الآتية، فإن الله لا يحاسبنا على ما يمسنا من شر، بل يجازينا عليه إن احتملناه بصبر. أما إذا تغاضينا عن خدمته وأهملنا ما يتعلق بعبادته وخدمة كنيسته، فإنه لا يمكننا أن نعتذر لديه باضطرابات الزمن أو شدة الاضطهاد، لأن بولس الرسول الموثق بالقيود، ويونان في بطن الحوت، والثلاثة فتية في أتون بابل كانوا يقومون بما يجب عليهم. اقتد إذن بهم، مهتمًا بأمر الكنائس واكتب لي كم كنيسة قد بنيت هذا العام؟ ومن هم الذين مضوا إلى بلاد فينيقية ليخدموا هذا الكرم الجديد؟ وماذا يرجون هناك من خير؟"[1]]

هذه صورة من رسائله التي بلغت حوالي ٢٤٢رسالة – طوال فترة نفيه – كلها تحمل مشاعر كرازة وتشجيع وتثبيت في الإيمان بروح مسيحي حق.

تستطيع أن تدرك مشاعره الداخلية في أغلب فترة نفيه مما كتبه إلى الأسقف قرياقوس:

[عندما استبعدت من المدينة لم أقلق، بل قلت لنفسي:

إن كانت الإمبراطورة ترغب أن تنفيني، فلتفعل ذلك، فإن "للرب الأرض"!

وإن كانت تود أن تنشرني، فإني أرى إشعياء مثلاً!

وإن أرادت إغراقي في المحيط، أفكر في يونان!

وإن أُلقيت في النار، أجد الثلاث فتية قد تحملوا ذلك في الأتون!

إن وُضعت أمام وحوش ضارية، أذكر دانيال في جب الأسود!

إن أرادت رجمي، فإن إسطفانوس أول الشهداء أمامي!

إن طلبت رأسي، لتفعل، فإن المعمدان يشرق أمامي!

عريانًا خرجت من بطن أمي وعريانًا أترك العالم.

بولس يذكرني: إن كنت بعد أرضي الناس لست عبدًا للمسيح[11].]

أودع البطريرك في السجن بنيقية حتى يصدر الأمر الإمبراطوري بتحديد مكان النفي... وفي السجن كتب رسالته الأولى إلى أولمبياس شماسته المتألمة لكي يعزيها ويسندها، قائلاً: [كلما قَستْ التجارب ازدادت وسائل التعزية... من جهتنا، نحن بصحة جيدة مملوؤون نشاطًا. بالحقيقة جسدنا قوي، نستنشق هواءً نقيًا، وجنود الإمبراطور المرافقون لي في المنفى يحبونني للغاية ويتفننون في خدمتي، ولا يتركونني معتازًا إلى شيء كأنما هم حرسي![12]]

أخيرًا جاءت رسالة من الإمبراطور إلى المتعهد بالبطريرك تأمره بالقيام به إلى كوكوزه في أقصى بلاد أرمينية، كمقر نهائي لنفيه، كما جاءت الأوامر مشددة أن يكون التعامل معه قاسيًا، وأن يواصلوا السفر نهارًا وليلاً، إجهادًا وتعجيلاً.

عبثًا حاول البطريرك أن يغير مكان نفيه إذ كتب في إحدى رسائله: [لم أستطع أن أحصل على هذا الرجاء البسيط، الذي لا يُرفض للمجرمين. ولكن ليكن اسم الله مباركًا![13]]

إلى قيصرية

انطلق الأسقف الأسير من نيقية في الرابع من شهر يوليو سنة ٤٠٤م يصحبه ركب من الجنود يقسون عليه ما استطاعوا. وبعد وصوله قيصرية كتب إلى شماسته جاء فيها: [إن رأيتِ ظلمًا كثيرًا صنعوه بنا، وقد سيطروا على العاصمة، وتمتعوا بكرامات، وساروا في مواكب الحرس، رددي هذه العبارة، "واسع هو الباب ورحب هو الطريق الذي يؤدى إلى الهلاك". بالأحرى ابكي عليهم. ونوحي من أجلهم! إنهم يصنعون آثامًا في العالم، وعوض تفكيرهم في خطاياهم يتمتعون باحترامات الناس. سيذهبون ومعهم احترامات الناس بكونها جزاءً قد نالوه![14]]

ثورة ضده في قيصرية كبادوكية

في أواخر عام ٤٠٤م أي بعد حوالي أربعة شهور من استقراره في منفاه "كوكوزه" صور لنا القديس في رسالته إلى أولمبياس[15] الثورة العارمة التي ألهبها فارتريوس أسقف قيصرية ضده فعند دخوله الكبادوك في يوليو ٤٠٤م قيل له إن فارتريوس ينتظرك، يذهب ويجيء من مكان إلى آخر ومن دير إلى دير، خشية ألا تتاح له فرصة اللقاء معك. تعجب

القديس لذلك، لكن لم يكن متوقع ما حدث!

لقد سجل لنا بقلمه أحداث قيصرية جاء فيها: [في هذه الأمور بالحقيقة يمكن ربحي! هنا توجد ثروتي! هنا أجد وسائل الخلاص من خطاياي!

في رحلتي اكتنفتني مثل هذه التجارب من أناس لم أكن قط أتوقع منهم هذا... عندئذ جاءني حقًا هيئة الإكليروس والشعب والرهبان والراهبات والأطباء، وأولوني اهتمامًا عظيمًا. فالكل كان يخدمني لكل نوع ويقدم لي العون لكن ضغط الحمى الشديدة هدتني فكنت في غاية الخطر. أخيرًا هدأ الداء قليلاً ثم زال. أما فارتريوس *Pharetrius* فلم يظهر في أي موضع، إنما كان ينتظر رحيلي، دون أن أدري ما يقصد بذلك.

إذ كانت الأمور هكذا، رأينا فجأة عند الفجر رعاعًا من الرهبان – يليق بي أن أطلق عليهم هذا اللقب، لكي أعبر عن مدى غضبهم – فقد اندفعوا نحو المنزل الذي نقيم فيه، وهددوا بحرقه واستخدموا معنا العنف الزائد إن لم نتركه... لجأ الجند إليَّ وتضرعوا متوسلين: "لو اضطررنا نسقط في يدي الأشوريين، أنقذنا من هذه الوحوش المفترسة".

عندما سمع الحاكم بهذا الخبر أسرع إلى المنزل مريدًا أن يقدم لي عونًا، لكن الرهبان لم يعطوا توسلاته اهتمامًا، حتى خارت قوته حقًا... بعث إلى (الأسقف) فارتريوس *Pharetrius* يرجوه إمهالي أيامًا قليلة بسبب مرضي والخطر المحيط بي، لكن لم يكن لهذا العمل نتيجة، بل على العكس في اليوم التالي وصل الرهبان في أكثر ثورة...

إذ صرت خارج المدينة تسرب إليَّ بعض الكهنة تدريجيًا وكانوا يرافقونني وهم يبكون طوال الطريق...

إذ سمعت السيدة الصالحة سيليسيا زوجة سيدي روفينوس الكريمة، وألصق صديقة إليَّ، ورأت بعينيها هذه الأمور، رجتني وتوسلت إليَّ أن ألجأ إلى منزلها الذي في ضاحية تبعد حوالي خمسة أميال عن المدينة، وأرسلت إليَّ رجالاً يرافقونني، فرحلت إلى هناك. هناك أيضًا لم تتوقف المؤامرة المدبرة ضدي، فإنه ما أن عرف فارتريوس بما فعلته المرأة حتى هددها، كما قالت بتهديدات كثيرة..،

في نصف الليل جاءني القس هيثيوس، أيقظني من نومي وهو يصرخ بصوت عال قائلاً: "أرجوك، استيقظ فإن البرابرة على الأبواب أنهم قريبون منا جدًا!"... والزمني بالخروج.

كان الوقت منتصف الليل، ليلاً مظلمًا غير مقمر، كئيبًا وهذا ما زاد موقفنا خطورة!...

سقطت الدابة على ركبتيها إذ كان الطريق ضيقًا ووعرًا ومليئًا بالأحجار، فسقطت "الحمالة" التي كنت في داخلها وبالكاد نجوت من الهلاك لقد خرجت من "الحمالة" وسرت على قدمي يشدني الكاهن أفيثوس بسرعة، إذ نزل هو أيضًا عن دابته. كنت أسير بتثاقل، كما كان يقودني أو يسحب يدي، فقد كان السير مستحيلاً في طريق غاية في الصعوبة وسط جبال وعرة، في منتصف الليل...

ماذا أقول عن الأحداث الأخرى التي وقعت في الطريق، والمخاوف والمخاطر؟ عندما أذكر هذه الأمور يومًا فيومًا، إذ على الدوام أتأملها، **أطير سعادة، أثب بالفرح كمن وجد كنزًا عظيمًا قد خزن له.** هذا هو حالي، وهذه هي مشاعري تجاه هذه الأمور...]

في كوكوزة

في أواسط سبتمبر سنة ٤٠٤م وصل الركب إلى كوكوزة حيث إستقبل العظيم يوحنا بكل وقارٍ وتكريمٍ، إذ كان أسقفها أذلفيوس على جانب من القداسة والتقوى. فاستراحت نفس البطريرك المنفي هناك حيث وجد الهدوء والراحة، كما وجد في شعبها الفقير غنى الروح.

حدثنا الأب البطريرك في رسائله عن المدينة وموقعها ومناخها وظروفها، ووصف لنا مشاعره وأحاسيسه في دقة بالغة، وكتب لنا عن أمراضه وأتعابه كما سجل لنا كرازته وأعماله الرعوية.

فمدينة كوكوزة على حد تعبيره "يخيل لي أني قد بلغت أقصى حدود المسكونة" تقع بين سلسلتين من الجبال، خالية من الأماكن العامة والأسواق التي تنبت الحياة الاجتماعية وتربطها بالعالم الخارجي[١٦].

دخل الأب منفاه الأخير منهك القوى، إذ يقول: [كنت في غاية التعب بعد رحلة شاقة استمرت سبعين يومًا لا تتصوري معي سموك مقدار ما قاسيناه! لقد امتلأنا خوفًا من الأشوريين، وأصابتني حمى شديدة، وأخيرًا بلغنا كوكوزة أكثر أماكن العالم انعزالاً[١٧].]

وجد في حاكم أرمينيا حبًا كما يظهر من رسالته إلى الأسقف قرياقوص: [إن سيدي سوباتير حاكم أرمينيا، التي أنا سجين فيها، يعاملني كأب بل يخدمني أكثر من أب[١٨].]

العزلة تعلن عن حبها

شعر القديس يوحنا باليُتم في كوكوزة – إن صح لنا هذا التعبير – فقد حرم من رعيته التي تمثل أحشاءه الداخلية وكل حياته بل امتصت كل مشاعره وأحاسيسه... كان جسده وقلبه ولسانه وقلمه... كل طاقته وتصرفاته تتفجر حبًا! لم تكن لديه ألاَّ وسيلة الرسائل يبعث بها وينتظر ردها، ولو أن البريد كان بطيئًا وكثيرًا ما كان السعاه يرجعون بها بسبب الخوف من اللصوص.

تستطيع أن تلمس مشاعر الحب المرهفة للبطريرك المتألم في كلمته التي وجهها إلى الدوق ثيؤدوسيوس[١٩]:"أنك لم تكف عن تقبيل رسائلي، أما أنا فقد قبّلت كاتب الرسالة. حوطتُ بيدي حول عنقه وقبّلت رأسه الغالية عليَّ. أية تعزية لي، فإنه لم تصلني رسالتك بل (كأنني) رأيتك بجواري، تحيا معي!".

لم تقف رسائله عند حدود العلاقات الشخصية، لكنه كان مهتمًا بأمور الخدمة، يتعرف على أخبارها بواسطة الزوار[٢٠]، ويكتب مشجعًا ومعزيًا وناصحًا وموبخًا أيضًا.

بعث أيضًا رسالة رائعة للمراسلين المضطهدين يقول[٢١]:

كتب الكثير، وكانت كتاباته تحمل فيضًا من الحب مع التزام بالمسئولية تجاه الكنيسة وخدامها وأولادها، حكام وأساقفة وكهنة وشمامسة وشماسات ورهبان وعلمانيين... لأجل الدخول بكل أحد إلى حياة "الشركة العملية العميقة مع المسيح يسوع".

أخيرًا فإن رسالته إلى البيدوس[٢٢] تكشف لنا المجهود الشاق الذي تحمله القديس في كتابة كل رسالة، إذ يعتذر له عن عدم رده على رسائله لوجوده في مكان أشبه بسجن، بل أكثر منه قسوة، مع ندرة الأشخاص الموثوق فيهم لحمل رسائله، هذا بجانب مرضه الذي يهدده، فقد كان ملقى على الفراش طول الشتاء... إنه يقول له "هذا هو سر سكوت قلمي لا قلبي... فإني وإن كنت في برية بعيدة أكثر من هذه التي أنا أعيش فيها، فإن ذكراكم تظل محفورة في ذهني".

آلامه في كوكوزة

في السنة الأولى تألم القديس كثيرًا بسبب قسوة الجو التي لم يعتد عليها في وطنه، فشتاء كوكوزة قارس البرودة وصيفها شديد الحرارة، وكلاهما ضارين بصحته المرهفة، إذ يقول: [أن شدة الحر في أثرها عليَّ لا تقل حدة عن شدة البرد[٢٣].]

تزداد بالأكثر آلامه بسبب هجوم الأشوريين، إذ يقول: ["كنت أنتقل من مكان إلى آخر في قمة فصل الشتاء. فقد كنا تارة نسكن في المدن وأخرى في المخابئ أو الغابات خوفًا من الأشوريين[٢٤].]

أخيرًا إذ تلامس مع "عناية الله" وسط الضيق، فسجل لنا: الكثير من الرسائل التي تحمل طابع مقالات عن الألم وعناية الله بنا وسط الآلام. ومقالاً عن "لا يستطيع أحد أن يؤذي إنسانًا إن لم يوذِ الإنسان نفسه". ومقالاً عن "عناية الله". في هذه المقالات يكتب بإسهاب عن "حبيبه أيوب". كان لم ينسَ صداقته مع القديس بولس، إذ شرب منه روح الكرازة والحب، فإنه داخل في صداقة قوية مع رجل الآلام أيوب خلال ممارسته للألم!

موقف أسقف روما

أرسل القديس يوحنا – قبل نفيه الثاني – إلى ثلاثة أساقفة: أسقف روما، وأسقف ميلان، وأسقف أكويليا، رسائل ثلاثًا تحمل نصًا واحدًا، دون أن يخص أسقف روما شيئًا دون الأسقفين. وكان رد أسقف روما يحمل تشجيعًا على احتمال الألم مع محاولة السعي لعقد مجمع مسكوني عام لبحث القضية.

عقد مجمعًا محليًا برئاسته – بلا شك – لا للبت في قضية بطريرك القسطنطينية، فإن هذا ليس من اختصاصه، إنما للتشاور وتدارس ما يمكن عمله، وفعلاً رأوا أن يطلبوا من إمبراطور الغرب أن يرسل إلى أخيه إمبراطور الشرق لكي يسمح بعقد مجمع مسكوني يضم أساقفة من الشرق والغرب لدراسة هذه المشكلة. وإذ استصوب الإمبراطور ذلك أرسل وفدًا من أساقفة وكاهنين وشماس يحملون رسالة من هناريوس يترجى أركاديوس الموافقة على ذلك الطلب. لكن ما أن دخلوا حدود الإمبراطورية الشرقية حتى اِعتبر أركاديوس هذا تدخلاً في أمور الشرق، فألقى القبض عليهم وأساء معاملتهم وردهم إلى الغرب. وهنا وقف كل عمل يمكن للكنيسة الغربية أن تقوم به!

هذا هو موقف الكنيسة الغربية، وقبل أن نتحدث عن موقف كنيسة أنطاكية نود أن نسجل بكل فخر واعتزاز أن تلميذه "القديس نيل السينائي" بعث برسالتين إلى الإمبراطور أركاديوس يعاتبه بشدة على الظلم الحادث في مملكته.

نعود إلى كنيسة أنطاكية، فقد كان موقفها مؤلمًا، لقد بلغ الأسقف فلافيان من العمر ما يقرب من المائة عام، فكان الأساقفة المضادون ليوحنا يدبرون المكائد. وفي عام ٤٠٤م رقد فلافيان فهرع الأساقفة إلى رسامة بورفيروس ضد إرادة الشعب. ولما قاومه الشعب صدر قرار إمبراطوري يوجب الاعتراف بأرساكيوس أسقفًا للقسطنطينية وثاوفيلس للآسكندرية وبروفيروس لأنطاكية مع استبعاد غير الخاضعين لهم.

فى عام ٥٠٤م توفى أرساكيوس فترجى الأرثوذكس عودة راعيهم يوحنا من النفي، لكن سفريان ومن حوله أسرعوا بإقامة أتيكوس السبسطي أسقفًا على القسطنطينية، فأبى بعض الأساقفة الاشتراك معه وتنحى عنه الشعب. فلكي يقطع المتآمرون خط الرجعة عليهم سعوا لدى الإمبراطور ليصدر أمرًا بنقله من كوكوزة إلى بيتوس على الساحل الشرقي من البحر الأسود، وقد أمر الجند بالإسراع في التنفيذ. وقد وعدوا الجند بمكافأة إن اتخذوا التدابير اللازمة لموته في الطريق، حتى يتخلص الإمبراطور من قيام أية ثورة تطالب بعودته.

إنطلق الركب في أواسط يونيو ٧٠٤م، وكانوا يسيرون به في شدة الحر حتى اعترته حمى شديدة. وإذ رأوا قوته قد خارت تمامًا نزلوا إلى كنيسة صغيرة في كومانة، دفن فيها الشهيد الأسقف باسيليكس فقضى البطريرك المتألم ليلته فيها، حيث ظهر له الشهيد يقول له: تشدد وتقو يا أخي يوحنا، فإننا غدًا نكون سويًا! وكان قد سبق فظهر لكاهن الكنيسة قبيل مجيء البطريرك يقول له: أعد كل شيء لأخي يوحنا.

في الصباح طلب يوحنا من الجند إمهاله حتى الظهيرة فلم يقبلوا وألزموه بالسفر. إذ رأوه أشرف على الانتقال عادوا به إلى الكنيسة سريعًا. لبس القديس يوحنا ثوبًا أبيض وتناول الأسرار المقدسة ونطق عبارته المفضلة دائمًا: "ليكن الله مباركًا في كل شيء! آمين".

في ٧٢ يناير من سنة ٨٣٤م أرسل الإمبراطور ثيؤدوسيوس الصغير جماعة لنقل جسده إلى القسطنطينية. ولما بلغوا خلقيدونية حملوه إلى كنيسة الرسل، حيث خرَّ الإمبراطور أمامه والدموع تنفجر من عينيه، طالبًا الغفران عن نفسه وعن والديه أركاديوس وأفدوكسيا!

1 *Antequam iret in exsil PG 52: 427 – 429.*
2 *Palladius PG 47 – 30.*
3 *Soc 6: 17.*
4 *Soc 6: 18. Soz. 8: 20, Pallad. 9 – 12.*
5 *Soc 6: 18, Soz 8:20.*
6 *Bardy G. Saint Jean de Const. 4: 141* الدكتور أسد رستم، مجلد ١، ص ٩٧٢.
7 *Soc 6: 18. Pallad. 33 – 34.*
8 *Sox. 8: 21.*
9 *Palladius. Dial 10.*

١٠قطف الأزهار من مروج الأحبار.

11 *N & PNF, series2, vol 9, p 14.*
12 *Ep 11 ad Olympias PG 52 : 609.* (كتبها في يونيو ٤٠٤)
13 *Epistle 120. PG 52 : 674 – 675.*
14 *Epistle 8 ad Olympias PG 25: 607 – 608.*
15 *Epistle 14.*
16 *Sources Chrétiennes, vol 79, p 8.*
17 *Epistle 224 : PG 52 : 739.*
18 *Ep. 64 PG 52 : 644,*
19 *EP. 58 PG 52 : 641.*
20 *EP. 63 PG 52 : 613.*
21 *EP. 123 PG 52 : 676 – 678.*
22 *Ep 188 PG 52: 695.*
23 *Ep 146 PG 52: 698.*
24 *Ep 68, 69 PG 52. 646.*

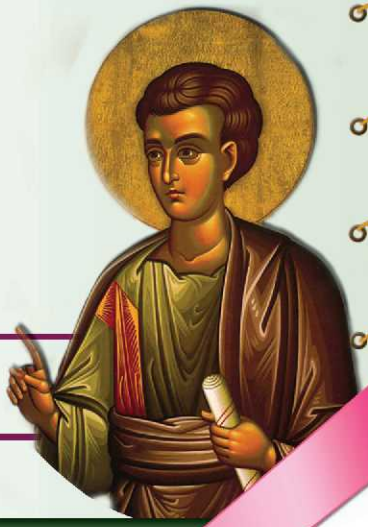

القمص تادرس يعقوب ملطي